مجلة روافد للبحوث و الدراسات / مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة غرداية / العدد 2 (2025 م)
E: 2588-1787 / P: 2543 - 3563
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/806

"دراسة حول خلفيات الرحالة الأجانب إلى فلسطين في القرن التاسع عشر: الرحالة فرانسوا روني دوشاتوبريان، ألفونس دي لامارتين، غوسطاف فلوبير، ماري إليزا روجرز أنموذجاً"

"A study on the backgrounds of foreign travelers to Palestine in the nineteenth century: the traveler François Rene Duchateaubriand, Alphonse de Lamartine, Gustave Flaubert, and Mary Eliza Rogers as an example".

ممدوح غالب أحمد بري – طالب دكتوراه –
جامعة النجاح الوطنية –كلية الدراسات العليا- برنامج التاريخ – نابلس – فلسطين
mb_a_1982@hotmail.com
أ. د: محمود يزبك
جامعة حيفا –كلية العلوم الإنسانية – قسم التاريخ.
تاريخ الاستلام: 2024/05/04 تاريخ القبول: 2024/05/20 تاريخ النشر: 2025/05/10

ملخص:
تستقي هذه الدراسة مصادرها من أربع رحلات لرحالة أجانب، تعود أُصولهم إلى فرنسا وإنجلترا، كانوا قد زاروا مدينة يافا وفلسطين خلال القرن التاسع عشر، وتتوزع رحلتهم بين أعوام 1803-1859 م، وهي فترة مهم في تاريخ فلسطين العثماني، نتاج ما شهدته من تحولات وأحداث سياسية مهمة، كان أبرزها أثار حملة نابليون بونابرت في مصر وبلاد الشام 1798-1801م، وتبعتها حملة فريزر البريطاني على مصر 1807م، وحملة حاكم مصر مُحَمَّد علي باشا على بلاد الشام 1831-1840م، ودخول عهد التنظيمات والإصلاحات العثمانية 1839م و1853م، وعدة حروب داخلية، سيما بين العوائل الإقطاعية في جبل نابلس منذ انسحاب مُحَمَّد علي باشا من بلاد الشام، وكذلك هزيمة الدولة العثمانية في القرم عام 1854م، وما ترتب على كل ذلك

المؤلف المرسل: ط.د. ممدوح غالب أحمد بري mb_a_1982@hotmail.com

من تدخلات وامتيازات أجنبية، وتنامي دور القناصل الأجانب والإرساليات التبشيرية إلى فلسطين وسائر بلاد المشرق العربي والإسلامي.

اخترنا من بين هذه الرحلات أبرز تلك التي تزامنت مع هذه التحولات والأحداث الهامة التي تأثرت بها الحياة العامة في فلسطين، وكان أبرزها رحلة الرحالة فرانسوا رونيه دوشاتوبريان (ت1848م) من أبرز الرحالة، وهو فرنسي الجنسية، يعتبر مثقف كاثوليكي، تعتبر رحلته التي حملت عنوان "**الطريق من باريس إلى القدس عام 1803م**" احدى أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة.

يعتبر الرحالة الفرنسي ألفونس دي لامارتين (ت1869م)، وكتابه الذي حمل عنوان "**مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق عام 1832م**"، حيث تجول في مدن فلسطين، ودخلها من الشمال قادماً من جبل لبنان، ويعتبر كتابه أحد أهم المصادر التي اعتمدت عليها، وتطغي على مشاهداته صبغة الكاثوليكي الفرنسي المتدين، المنفتح على الإسلام، لكنه لم يستطع أن يخفي أنه ابن تلك الحضارة الغربية.

أسهم غوسطاف فلوبير (ت1880م) الروائي الفرنسي الليبرالي في إثراء هذه الدراسة، من خلال كتابه "**رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج عام 1850م**"، نتاج شخصيته المتحررة اجتماعياً.

كان لرحلة الشابة الإنجليزية ماري إليزا روجرز (ت1910م) النصيب الأكبر من بين مصادر هذه الدراسة، لما تميزت فيه من تفصيل دقيق لأبسط تفاصيل الحياة الاجتماعية في فلسطين، في كتابها الموسوم بعنوان "**الحياة في بيوت فلسطين، رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855–1859م**" ، حيث أسهمت رفقتها لشقيقها الدبلوماسي الإنجليزي الذي مكث في فلسطين طوال أكثر من أربع سنوات في إثراء تحليلاتها ومشاهداتها، نتاج شروحته وتوجيهاته، فأثرت في ثقافتها وعززت من قدرتها على فهم طبيعة المجتمع، والتعبير الجيد عن كل ما تشاهده.

كلمات مفتاحية: الرحالة الأجانب، فلسطين في القرن التاسع عشر، فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، ألفونس دي لامارتين، غوسطاف فلوبير، ماري إليزا روجرز.

Abstract:
This study draws its sources from four trips by foreign travelers, whose origins go back to France and England, who visited the city of Jaffa and Palestine during the nineteenth century, and their trip is distributed between the years 1803-1859 AD, which is an important period in the Ottoman history of Palestine, the result of the political

transformations and events it witnessed. Important, the most prominent of which were the effects of Napoleon Bonaparte's campaign in Egypt and the Levant in 1798-1801 AD, followed by the British Frazer's campaign in Egypt in 1807 AD, and the campaign of the ruler of Egypt, Muhammad Ali Pasha, in the Levant in 1831-1840 AD, and the entry into the era of Ottoman organizations and reforms in 1839 AD and 1853 AD, and several internal wars, especially Among the feudal families in Jabal Nablus since the withdrawal of Muhammad Ali Pasha from the Levant, as well as the defeat of the Ottoman Empire in Crimea in 1854 AD, and the foreign interventions and privileges that resulted from all of that, and the growing role of foreign consuls and missionary missions to Palestine and the rest of the countries of the Arab and Islamic East.

From among these trips, we chose the most prominent ones that coincided with these important transformations and events that affected public life in Palestine. The most prominent of these was the trip of the traveler François René Duchateaubriand (d. 1848 AD), one of the most prominent travellers. He was a French national and is considered a Catholic intellectual. His trip, which bore the title " The road from Paris to Jerusalem in 1803 AD" is one of the most important sources that I relied on in this study.

Keywords: foreign travelers, Palestine in the nineteenth century, François Rene Duchateaubriand, Alphonse de Lamartine, Gustave Flaubert, Mary Eliza Rogers.

تمهيد

لا نَستَطيع أَن نَتَحَدَث عَن الحياة العامة في مدينة يافا ومُحيطها البيئي والاجتماعي الِتي وردت في كُتُب الرحالة الأَجانب خلال القرن التاسع عَشر بدون فَهم وَتَحليل خلفيات الرحالة، من حيث ثقافتهم الشخصية وعلاقاتهم الداخلية مع النُخب والأَهَاليَ والدور المنوط بهم في فلسطين، وخلفياتهم الدينية والمذهبية، ومستواهم التعليمي والفكري، وموقفهم من الأخر المختلف، وَكَذَلك تلك التصورات المسبقة عن فلسطين وسكانها وسائر بلاد المشرق.

لا نستطيع أن نصف المشاهدات الأولى للرحالة حول المظاهر العمرانية والبيئية والثقافية والسكانية في يافا ومحيطها إلا بعد تقديم تحليل حول خلفيات الرحالة ومداركهم المسبقة، لما لها من عظيم الأثر والذي شاهدناه في أسلوب كتاباتهم وطُرق التعبير عن مشاهداتهم.

1:1:- فرانسوا رونيه دوشاتوبريان 1768-1848م[1]:

نتحدث عن مثقف فرنسي مسيحي أرثوذكسي متدين، جاء إلى فلسطين عام 1803م بعد هزيمة إمبراطور فرنسا نابليون بونابرت في الشرق 1798-1801م مباشرة، يحمل غرور الثقافة الفرنسية والغرب الأوروبي، جاء في فترة لا يوجد فيها لدى فرنسا في الساحل الشامل ذلك النفوذ السياسي، وكانت تخلوا مدنه من القنصليات في حينه، وحتى على مستوى باقي بلدان أوروبا، مما انعكس على طبيعة الاستقبال والمبيت والتنقل الذي عايشه – دوشاتوبريان -، فلم يجد وسيلة تنقُل أو مكان للمبيت إلا عبر اعتماده في الغالب على الآباء والرهبان في الأديرة، وذلك نتاجً عَلاقاته وخبرته التي اكتسبها خلال رحلته في بلاد اليونان وإسطنبول قبل وصوله إلى يافا، لربما أن ذلك أيضاً نتاج وضعه المادي المحدود ونتاج ثقافته الدينية المتعصبة والغير منفتحة على السكان المحلين، أو نتاج الكثير من الأفكار والتصورات التي نسجها له الآباء والرهبان في يافا[2].

بينما تميزت تلك الرحلات التي وصلت إلى فلسطين خلال الحكم المصري 1831-1840 م، باهتمام ومتابعة من قبل حكام وآغاوات مدينة يافا وباقي مدن وقرى

[1] فرانسوا رونيه دوشاتوبريان (ت1848م) من أبرز الرحالة في القرن التاسع عشر، وهو فرنسي الجنسية، يعتبر مثقف كاثوليكي، رحلته إلى فلسطين حملت عنوان "**الطريق من باريس إلى القدس عام 1803م**".

[2] دوشاتوبريان، فرانسوا رونيه، **الطريق من باريس إلى القدس عام 1803م**، ترجمة مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة والنشر، العراق - بغداد – شارع أبو نواس، ط1، 2008م، ص103-104 (فيما يلي دوشاتوبريان).

فلسطين وجنود الحاميات العسكرية فيها، وجرى ذات الأمر وذات الاهتمام مع تلك التي قدمت إلى فلسطين بعد انتهاء الحكم المصري، وذلك نتاج زيادة النفوذ السياسي للقنصليات الأجنبية[3].

وكانت قَد دارت في مُخَيلَة –دوشاتوبريان– خلال رحلته إلى فلسطين عام 1803م جملة من الأَفكار المسبقة والخَلفيات الذهنية حول الأَرض المقَدَسة بجُملَتها، ولَيس فَقَط عن يافا، بل عن القدس وبيت لَحَم ونَهر الأُردن والبحر الميت َأيضَا[4]. حيث وصفها – دوشاتوبريان – بالأرض البدائية والبكر،[5] وهنا تبدو واضحة مظاهر الاعتداد بالحضارة الغربية.

كانت في مخيلته المعالم الجغرافية التي تحدثت عنها التوراة[6]، نتاج خلفيته الدينية، وتأثره بالعهد الجديد. ولديه موقف سلبي تجاه الإسلام، عبر عنه في أكثر من موضع وتمنى استعادة السيطرة المسيحية والأوروبية على هذه البلاد كما كانت في عهد الحروب الفرنجية. وخلَطَ بين الأُصول التركية والعربية في فلسطين[7]، وهذا نتاج أن العقل الأوروبي اعتاد طوال قرون عدة أن يصف العالم الإسلامي ببلاد الأتراك وبالعثمانيين، وهذا نتاج الدور السياسي والعسكري الذي تصدر مشهده العرق التركي المسلم، حينما دافع عن بلاد الشرق خلال عدة غزوات استعمارية أوروبية متعاقبة على سواحل بلاد المشرق وفي البحر المتوسط.

---

[3] لامارتين، ألفونس دي، **مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق عام 1832م**، ترجمة جمال شحيد وماري طوق، الكويت، 2006م)، ص254، 255، 258. (فيما يلي لامارتين)

[4] دوشاتوبريان، ص9 .

[5] دوشاتوبريان، ص12 .

[6] دوشاتوبريان، ص12 .

[7] دوشاتوبريان، ص14 .

لم ينظر إلى بلاد الشرق سوى أنها ماضي وسرد تاريخي، وكانت مُخيلته تعج بالكثير من الأسماء والأماكن والمناخات العتيقة التي رسمها مخياله، نتاج قراءاته الدينية، فكان كل ما يشاهده من أماكن وأشخاص وبيئة وتفاعل اجتماعي يعمد إلى إسقاطه على صور عدة كان قد رسمها في عقله نتاج قراءاته حول جغرافية التوراة.

لم تتوقف تعبيراته ذات الدلالات الدينية والتاريخية في جانبها التوراتي، عندما وصف جبال فلسطين بمهد الإسرائيليين، بل تجاوزها حينما أظهر افتخاره بالحملات الصليبية[8] ، خلال حديثه عن المدن والقرى ومظاهر عمرانها، والاطلاع على أطلالها وخرائبها، فكان يطلق عليها العديد من الأسماء الصليبية، ويسمي الكثير من طرازها المعماري ويرجعه إلى تلك الحقبة.

2:1:- ألفونس دي لامارتين 1790-1869م[9]

تزامنت رحلة دي لامارتين الفرنسي الأرثوذكسي إلى الشرق عام 1832م مع سيطرة الحاكم المصري إبراهيم باشا على فلسطين، وتخلل ذلك أثار سلبية على صعيد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وعلى الجانب العمراني، سيما بعد تحويل عكا إلى كومة من الركام والخراب[10]، وانعكس هذا المشهد وهذه الديناميات السياسية وغيرها على جزء واسع من أحكام ومشاهدات – دي لامارتين – خلال تجواله في مُدن فلسطين.

---

[8] دوشاتوبريان، ص97 .

[9] الرحالة الفرنسي ألفونس دي لامارتين (ت1869م)، وكتابه الذي حمل عنوان "**مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق عام 1832م**"، تجول في مدن فلسطين، ودخلها من الشمال قادماً من جبل لبنان، ويعتبر كتابه أحد أهم المصادر التي اعتمدت عليها، وتطغي على مشاهداته صبغة الكاثوليكي الفرنسي المتدين، المنفتح على الإسلام، لكنه لم يستطع أن يخفي أنه ابن تلك الحضارة الغربية.

[10] لامارتين، ص226.

اعتمد دي لامارتين على وضعه المادي في الكثير من سُبل الراحة في رحلته، من بينها ارتاد فندق وخان في مدينة يافا، بينما لم يسمح له الرهبان دخول دير اللاتين في ذات المدينة[11]، سهلت علاقات قنصل النمسا الجيدة مع والي عكا عبد الله باشا رحلة دي لامارتين، وكذلك ساعدته علاقته الاجتماعية مع الليدي الإنجليزية – هستر ستانهوب – في توفير سُبل الراحة والعناية والخدمة التي تلقاها لامارتين، سيما بعد مروره في ديار أبو غوش شيخ الصحراء وحاكم أجزاء واسعة في جبل القدس وبيت لحم وزعيم أكبر تجمع قبلي في فلسطين[12].

تميزت هذه الفترة من عمر الدولة العثمانية بتعاظم دور القناصل، سيما نتيجة حملة مُحَمَّد علي باشا على بلاد الشام. حتى أن مجمل كنائس فلسطين كانت خلال تلك الفترة تخضع تحت سيطرة القناصل الأجانب، بحيث يكتب الآباء في الكنائس للقناصل كُل ما يعتريهم من مشكلات اجتماعية وسياسية، قد يُكرهوا عليها عبر قرارات وسلوكيات يفرضها عليهم الحكام حكام مدن الفلسطيني، وفي المقابل تتدخل هذه القنصليات عند الباشا أو الحاكم، ويتم حلها بيسرٍ وسهولة[13]، نتاج الاتفاقيات والتفاهمات الموقعة فيما بينهما.

انتقد – لا مارتين – مشاهد الملل والبطالة التي وصف بها حياة الرهبان في الأديرة، وتحدث عن ظاهرة الجهل وتدني المعرفة الدينية والتاريخية والاجتماعية لدى غالبيتهم، رغم طول سنوات مكوثهم في هذه الأديرة، ويفترض أن هذه السنوات قد أسهمت في صقل معارفهم، إلا أن مجمل نقاشاتهم سطحية ومُخجلة[14]، مما يمنحنا تصور عام حول شخصيته الليبرالية ببعدها الثقافي النظري.

[11] لامارتين، ص288 .

[12] لامارتين، ألفونس دي، ص330 .

[13] لامارتين، ص254-255 .

[14] لامارتين، ص256 .

كشف – دي لامارتين- حقيقة حياة العدالة والرخاء التي يتمتع بها الآباء والرهبان في سائر أديرة فلسطين، ووصف مظاهر البحبوحة والثراء الذي كانت تعيشه هذه المؤسسات الدينية المسيحية في فلسطين، بمختلف مذاهبها، مع فوارق لصالح ثراء كبير تميزت به الأديرة والكنائس الأرمنية[15].

لم نجد هذا التعصب في كتابات – دي لامارتين- تجاه الدين الإسلامي[16]، والعرب الفلسطينيين منذ دخوله فلسطين عبر الحدود مع لبنان خلال مروراً بأراضي الجليل الغربي وعكا وسائر مناطق جبال الجليل حتى دخوله مدينة يافا، بل تميز بقدر من الموضوعية، سيما عند وصفه مظاهر الاحترام الذي يتمتع به الآباء والرهبان في أَديرية فلسطين لدى سكان البلاد، سيما من العرب المسلمين[17]، وتحدث بشكل تفصيلي حول الاحترام المتبادل والتسامح[18]، سيما في مدينة الناصرة[19]، وفي باقي مدن فلسطين.

تغنى بعظمة بلاد كنعان، لكنه لَمْ يُحدد الحيز الجُغرافي لبلاد كنعان، ووصفها بقبيلة[20]، وكأنه اختزلها بحيز جغرافي محدود فيَ منطقَة الشمال، أسفل مرجل بن عامر، الذي وصفه بسهل قبيلة كنعان[21]، ربما كان يقصد بذلك جبال نابلس حتى شمال مدينة جنين.

[15] لامارتين، ص256 .
[16] لامارتين، ص249 .
[17] لامارتين، ص258 .
[18] لامارتين، ص255 .
[19] لامارتين، 238 .
[20] لامارتين، ص227،229 .
[21] لامارتين، ص227 .

كان وصفة لتقسيم أقاليم فلسطين غير علمي، حينما حددها في منطقة يهودية وفلسطين والجليل[22] ، وتحدث عن المدن اليهودية وأرض التوراة في عدة مواضع بشكل مبالغ فيه[23]، ووصف شيء من جغرافية يهودا، وموقع قبيلتي افرايم وبنيامين[24]، وهنا كما يبدو أنه تأثر بشيء مما علق في ذهنه أو تأثر به من خلال حكايات الموروث الديني الغربي، المتأثر بالتوراة والعهد الجديد. وتوسع في هذا السياق التوراتي، حينما أوشك أن يصل أسوار القدس، حيث تفتقت قريحته التوراتية عبر سرد روايات دينية أسقطها على المواقع والأماكن[25] ، ويبدو غريباً بالنسبة لي هذا المخيال لدى رجل أرثوذكسي، بينما يمكن أن يستساغ لو كان بروتستانتي.

لم يُحسن –لامارتين– أن يُميز بين العرب ممن يسكنون القرى ومن جانب أخر البدو، بل وصف مجمل مشاهدته لرجال عرب بالبدو، سيما في الجليل[26]، والطريق الساحلي الواصل بين حيفا ويافا[27]، لكنه بعد فترة من الترحال في فلسطين، وكأنه استطاع أن يعيد التمييز بينهما، حينما وصف الأبنية العربية بجمالها وأناقتها، وقام بتمجيد الكثير من خصال العرب في يافا والرملة وغيرهما[28] .

منح العرق التركي أفضلية سكانية ومعمارية من حيث تعداد السكان، بحيث كان يصف الكثير من المساجد والجوامع والحمامات والكثير من القرى التي كان يمر بها أو يلمحها من بعيد بالتركية، رغم موقفه السلبي المنتقد للحكم التركي، بذريعة نشر

[22] لامارتين، ص315 .
[23] لامارتين، ص233 .
[24] لامارتين، ص293 .
[25] لامارتين، ص203 .
[26] لامارتين، 231، 278، 283 .
[27] لامارتين، ص283 .
[28] لامارتين، ص256، 259 .

الذُعر والخوف بين أهالي مدينة القدس[29]، وهذا خلط واضح بين دور وتأثير حكام البلاد الأتراك خلال القرون الماضية وأهمية هيبة الدولة، وبين سُكانها العرب ممن دشنوا هذه النفائس المعمارية.

تزامن وقت نزوله في يافا وجوارها والقدس وجوارها مع انتشار داء الطاعون في هذه المدن[30]، مما أثّر كثيراً على دقة مُشاهداته، لكنه امتلك عدة مهارات، ساعدته على أن يتغلب على الواقع المرحلي، ويصف المظاهر الخارجية للحياة الاجتماعية في تلك المناطق بشيء من المقبولية، بدون أن تتغلب على لغته ومفرداته أزمة داء الطاعون الطارئة، إلا أنه مثل غيره من الرحالة، لم يحاول أن يدخل في أعماق المجتمع والأحياء الفلسطينية داخل المدن، سيما تلك الأحواش التي تُعبر عن حقيقة عالم مجتمعات تلك الحقبة الزمنية.

3:1:- غوسطاف فلوبير 1821-1880م[31]

يعتبر - غوسطاف فلوبير - روائي ليبرالي فرنسي لديه نزعة متحررة من القيود الأخلاقية، اتضحت في عدة مواضع خلال زيارته فلسطين[32]، زار فلسطين عام 1850م، وصلها عبر الطريق الساحلي قادماً من شمال فلسطين[33]، وهي الفترة التي أعقبت انتهاء الحكم المصري في فلسطين عام 1832- 1840م، وما تخللها من عودة تدريجية لأنماط الإدارة العثمانية في فلسطين، وأعقبها تحديث الكثير من القوانين والمؤسسات والنظُم الإدارية، وانعكس ذلك على دور القوى الأجنبية في فلسطين.

---

[29] لامارتين، ص235، 250، ص20-23 .

[30] لامارتين، ص313، 318 .

[31] غوسطاف فلوبير (ت1880م) روائي فرنسي ليبرالي، رحلته بعنوان "**رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج عام 1850م**"، وشخصيته متحررة اجتماعياً.

[32] فلوبير غوسطاف، **رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج 1850م**، ترجمة فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، ط، 2013م.، ص54، 65، 66، 68، 73، 77، (فيما يلي فلوبير).

[33] فلوبير، ص17.

لكن لم يعتمد – غوسطاف – كثيراً في رحلته على نفوذ وتأثير بلاده في فلسطين، ولا حتى على عائلات وشخصيات ومؤسسات دينية في فلسطين مرتبطة بفرنسا[34].

اختار طاقم معاونيه ومرافقيه بنفسه، منذ وصوله إلى يافا، ولم يمكث في الأديرة الكاثوليكية أو تلك المؤسسات التابعة لفرنسا، بل اختار أن ينزل في احدى خانات يافا البسيطة[35]، وهو خان أرمني[36]، وتناول طعامه في فندق خاص، على عكس سواه من الرحالة ممِن اعتادوا أن يرتادوا منزِل أو أماكن مبيت في الأديرة أو منازل أثرياء طائفتهم، وهي دلالات تُتيح لنا أن نستقي منها مظاهر تراجع النفوذ الفرنسي في هذه السنوات، سيما بعَّد انسحاب إبراهيم باشا من فلسطين، نتاج علاقاته بفرنسا[37]، واستمرت العلاقات المصرية الفرنسية الجيدة حتى غاية عام 1882م، وأدى هذا التراجع الفرنسي في بلاد الشام إلى تقدم إنجلترا، التي تمتعت بعلاقات جيدة مع الدولة العثمانية خلال تلك الفترة.

لم تخدمه ليبراليته ذات الطابع الأدبي الروائي، نتاج ما وقع فيه من مُغالَطات، عندما تحدث عن جغرافيا لها بعدها التاريخي والديني والسياسي، لأنه لم يعلم الكثير عن بيئات الشرق، ولم تساعده ليبراليته في الانفتاح على المجتمع الشرقي، بحيث حافظ على حاجز وجداني بينه وبين العربي الفلسطيني، لم يختلط مع المجتمع العربي الفلسطيني خلال رحلته بما يكفي لينعكس على كتاباته، حتى أنه لَم يندَمج مع مرافقيه بما يكفي، سيما سائس الخيل والدليل والبغاله، لم يتبادل معهم الأفكار حَول مشاهداته، بل كان

[34] فلوبير، ص13، 17-18 .

[35] فلوبير، ص13، 17 .

[36] فلوبير، ص17 .

[37] أ . و . كينغلك، **رحلة إلى المشرق 1834-1835م**، ترجمة محمود العابدي، سلسلة شرق الغربيين، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، ط1، 2005م، ص68. (فيما يلي كينغلك)

يكتفي بالمشاهدة، أو الاستماع إلى حوارات بعيدة عنه تجري بين المارة والباعة والجند الأتراك[38].

لم تقدم كتاباته حول رحلته إلى فلسطين الشيء الكثير، ولم أجد فيها ذلك العمق المعرفي. فهو يكتب ما يرى داخل وخارج يافا[39]، ولديه نظرة تشاؤمية لربما نتاج توجهاته الأدبية والليبرالية، بحيث لم يستطع أن يفهم طبيعة الحياة في القدس على حقيقتها، وصف مشاعر التدين لدى زوار الأماكن المسيحية بأنها مزيفة، لم يحسن أن يُجري حوار جيد مع الحلاق، بل اكتفى بانتقاد ابتسامته، ولم يحسن فهم أسبابها وحيثياتها، وتحدث عن صور الآباء والشهداء في زوايا الكنائس بشيء من عدم الاكتراث، وغير ذلك الكثير من النتوءات التي يعج بها مدوناته[40]، لربما وقع في ذلك كونه وصل إلى يافا والقدس في ذروة شهر رمضان[41]، إلا أنه لم يحاول أن يتخيل الحياة العامة في القدس خارج نطاق الساعات التي أُتيح له التجوال فيها، سيما في المساء بعد وقت الإفطار.

تجاهل وجود السكان الأصليين العرب الفلسطينيين، لم يبحث بعمق، بل قُل أنه كان يفترض أن كل شخص يشاهده أو يلتقي به هو بمثابة يهودي، حتى أنك قد تتخيل نتاج ما افترضه أن فلسطين فارغة من أهلها العرب الفلسطينيون ولا سيكونها سوى اليهود فقط، وينسج حول ذلك قصصاً وحكايات، مثل قصة اليهودي الذي قدم له المياه في القدس[42]، بدون أنَ يُجرَي معه حَواراً، بل وصفه مباشرة باليهودي، وذلك الرجل الذي يعتمر قبعته ويرتدي سترة من الفرو، فوصفه باليهودي أيضاً باليهودي،

[38] فلوبير، ص23، 25.
[39] فلوبير، ص17-18 .
[40] فلوبير، ص22، 24، 25.
[41] فلوبير، ص21-23 .
[42] فلوبير، ص24، ص61 .

وفي القدس فندقاً يديره يهودي[43]، وتلك الغابة التي تزدهر بها مُختلَف أنواعِ الأَشجار قرب مدينة جنين، فأسماها برية إسرائيل[44]، وذلك اليهودي الذي كان يخرج من حمام إبراهيم باشا في طبرية فهو أيضاً يهودياً[45]، وتجاهل وجود العربي الفلسطيني في هذه الديار التي كانت عامرة بأهلها العرب الأوائل. حتى أَنه لَم يستخدمَ كلمة فلسطينَ، سوَى عندما أطلقه على منطقة جغرافية ضيقة، لربما تلك التي تقعَ في جنوب شرق مرج ابن عامر، تجاهل وجود العمارة الكنعانية والعربية، وبالغ في تَمجيد ووصف العمارةِ اليونانية والأرمنية في عدة مواضع[46].

4:1:- ماري إليزا روجرز 1827-1910م[47]

نتحدث هنا عن شابة مثقفة، تنتمي لعائلة إنجليزية، جاءت إلى فلسطين وعاشت فيها بين أعوام 1855-1859م برفقة شقيقها -إدوارد نومس روجرز- الدبلوماسي الإنجليزي، حيث كان ملحق سياسي يتنقل بين قنصليات ومكاتب بلاده في يافا وحيفا والقدس، يتدخل في الكثير من الصراعات المحلية، سيما في مراكز الأرياف والمدُن، يعلَم الكَثير عَن واقع فلسطينِ السكاني والاجتماعي والثقافي والسياسي والديني، جاء إلى البلاد بعد مرورَ عقد ونصف على انتهاء حكم مُحَمَّد علي باشا في فلسطين عام 1840م، وجاء خلال مناَخات حرب القرم 1953-156م بين

[43] فلوبير، ص50 .

[44] فلوبير، ص48 .

[45] فلوبير، ص51 .

[46] فلوبير، ص23، 24 .

[47] ماري إليزا روجرز (ت1910م): وهي رحلة شابة إنجليزية، كتابها الموسوم بعنوان "**الحياة في بيوت فلسطين، رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855-1859م**"، حيث أسهمت رفقتها لشقيقها الدبلوماسي الإنجليزي الذي مكَث في فلسطين طوال أكثر من أربع سنوات في إثراء تحليلاتها ومشاهداتها.

الدولة العثمانية وروسيا، وما تخللها من نفوذ وتغلغل أوروبي في الأراضي العثمانية، وكان النفوذ الأبرز لصالح بريطانيا، مقابل تراجع فرنسي واضح.

تأثرت – ماري روجرز– بخبرات ومواهب شقيقها – إدوارد –، وكانت تستمع جيداً بما يقدمه لها من شروحات وتفصيلات، وأسهمت علاقاته السياسية والاجتماعية في سائر مناطق فلسطين في تعزيز قيمة ملاحظاتها ومشاهداتها التي عبرت عنها في كتابها. لم تُبرز هويتها الدينية، ولم تُظهر تعصبها الحضاري بقدر فج على عكس غيرها من الرحالة، وهذا نتاج اهتماماتها العلمية واختصاصها في حقل دراسة بلاد الشرق، ونتاج تأثرها بالأجواء والنقاشات والمواقف التي شاهدتها بصحبة شقيقها إدوارد أو بصحبة تلك العوائل العربية المسيحية والمسلمة[48]، أو في بيوت الأسر الحاكمة في مدن وأرياف فلسطين.

كانت بيوت هذه الأُسر والعائلات الأرستقراطية أماكن مبيتهم وسكناهم المؤقت خلال مراحل تجوالهم في فلسطين، وكان من بينها ارتادوا منزل السيد خياط وهو موظف في قنصلية بلادها، وقبل أن يستضيفهم في منزله كان قد قدم لهم كل ما يلزم خلال وجودهم في الحجز الصحي في يافا[49] ، مما كان لهذه الأجواء المتنوعة بالغ الأثر الذي أسهم في تعزيز قدراتها خلال وصف وتحليل مشاهداتها، من زوايا ومدارك وخلفيات مُختلفة، انعكس بالإيجاب على مصداقية ومكانة مُدوناتها حول هذه الرحلة.

رغم وصفها جبال فلسطين بمرتفعات يهودا[50]، إلا أنها لم تبالغ في ذلك الوصف، بل ويبدو أنها قد تراجعت عنه رويداً حينما تعرفت على طبيعة التركيبة السكانية في

---

[48] روجرز، ماري إليزا، **الحياة في بيوت فلسطين، رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855–1859م**، ترجمة :جمال أبو غيدا، ص21. (فيما يلي روجرز)

[49] روجرز، ص12 – 14 .

[50] روجرز، ص10 .

فلسطين، وتميزت –ماري– بشيء من الموضوعية العلمية من حيث وصف الشيء كما هو، وكذلك كانت نظرتها مقبَولَة تجاه المسلمِّين، ويضح ذلك من خلال مواقف لا حصر لها، وأبرزها حينما دخلت في الحجر الصحي داخل يافا، تحت إشراف الأطباء، فوصفت التعامل داخل الغرفة المخصصة لهم، وطقوس الطعام والصلاة لدى جيرانهم من المسلمين في الغرفة المحاذية لهم[51]، وكذلك خلال زيارتها برفيقة شقيقها إلى قلعتي صانور وعرابة[52].

استخدمت اسم فلسطين منذ الوهلة الأولى[53]، مما يوحي أن لذلك دلالات خاصة بثقافتها وخلفياتها الفكرية، قد تكونت نتاج ما رسمه لها شقيقها –إدوارد– قبل الانطلاق في رحلته، وصدقاً يصعب أن نجد من الرحالة الأوروبيين من يطلق عليها اسم فلسطين قبل أن تنزل قدميه على ترابها وبَعد عدة تفاعلات، بحيث كانت تعج كتاباتهم بكلمات صليبية أو توراتية من قبيل الأرض المقدسة وأرض إسرائيل وبلاد يهوذا ويهودا وجبال السامرة وموطن قبيلتي لاوي وبنيامين وهكذا[54]. استخدمت مكانها الكثير من الأسماء العربية الفلسطينية في مجمل مراحل تنقلها في أرياف فلسطين الجبلية والساحلية، سيما تلك التي صادفتها في طريقها بين يافا والقدس، مثل الرملة وقالوني ويالو[55]، وفي بلدات جبال نابلس[56].

رغم كُل ما سَبق فهي ابنة الثقافة الغربية، لم تستطع أن تَتحرر بالكامل من مخيال ثقافتها الأم، سيما عندما خرجت من يافا وأوشكت على أن تَصل القُدس، وعندما دخلت في حدود منطقة الزعيم أبو غوش، حاولت أن تؤكد أنَ هذه القرية ليست

[51] روجرز، ص14، 24، 27.
[52] روجرز، ص29–32 .
[53] روجرز، ص22 .
[54] لامارتين، ص293 .
[55] روجرز، ص18–19، 29–30 .
[56] روجرز، ص 29–32 .

سوى قبيلة بدوية كبيرة ومهابة، سكنت على أطلال قرية عبرية اسمها يعاريم[57]، بينما وصف الرحالة دي لامارتين في موقع (قرية عناتا/أناتا) أخر يقع شرق القدس ويتبع قبيلة أبو غوش بأنه موقع قرية إرميا العبري[58] ، وظهرت هذه التصورات الدينية المسبقة حينما بدأت تظهر ملاح مدينة القدس من بعيد، حينها بدأت تنتعش ذاكرتها الثقافة العبرانية، التي هي جزء من الثقافة البروتستنتية المسيحية في إنجلترا، وفي ذات السياق صفت المباني القديمة خارج أسوار القدس بأنها مباني كان قد شيدها العبرانيون[59].

النتائج:

لا يمكن أن نفهم ذلك الانطباع الذي عبر عنه الرحالة الأجانب في مؤلفاتهم حول مدينة فلسطين خلال القرن التاسع عشر في فلسطين، إلا من خلال تسليط الضوء على الخلفيات الثقافية والتعليمية للرحالة، والتي لها بعداً مرتبطاً بتجاربهم وميولهم الاجتماعية والدينية والسياسية، ومدى اطلاعهم على الكتب المقدسة (العهدين القديم والجديد)، بما في ذلك توجهات الدول الأجنبية التي يحمل كلاً منهم جنسيتها، وأيضاً الدور والوظيفة التي جاء من أجلها، فبعضهم يحمل صفة رسمية، وبعضهم مرافق مع قريبه الدبلوماسي لأغراض الاستجمام، وبعضهم زائر لأغراض الحج والسياحة.

أسهم اعتماد الرحالة في رحلته على دليل (مرافق، مترجم وربما سايس الخيل أو قواس/ الغفير) في صقل انطباعه العام عن سائر التجمعات السكانية الفلسطينية وعن المجتمع والبيئة، ولوحظ أنه في حال كان الدليل من الرهبان أو الآباء تختلف هذه الانطباعات، وكذلك تختلف في حال كان الراهب من سكان البلاد الأصلين أو من الرهبان ذو الأصول الإيطالية والإسبانية، وحتى التعصب الديني والمذهبي قد أسهم في تشكيل هذه تصورات الرحالة حول مشاهداته، وفي الغالب كانت تظهر انطباعات

[57] روجرز، ص 28-29 .
[58] لامارتين، ص293 .
[59] روجرز، ص32 .

سلبية عن الحياة الاجتماعية في فلسطين برمتها، وليس فقط حول الانطباع عن مدينة يافا، بينما تظهر بعض الجوانب من الموضوعية في كُتُب الرحالة وانطباعاتهم في حال كان المرافق من العرب أو الأتراك، وهكذا في حال كان الرحالة قد دخل البلاد مع قريبه الذي يعمل في قنصلية بلاده في فلسطين، لما له من خبرة حول تفاصيل المجتمع والبيئة.

رغم موضوعية ماري روجرز المقبولة إلا أنها نتاج من منتجات الثقافة الغربية، حيث أنها تستطع أن تتحرر بالكامل من مخيال ثقافتها الأم، سيما عندما خرجت من يافا وأوشكت على أن تصل القُدس، وعندما دخلت في حدود منطقة الزعيم أبو غوش، حاولت أن تؤكد أن هَذه القرية ليست سوى قبيلة بدوية كبيرة ومهابة، سكنت على أطلال قرية عبرية اسمها يعاريم، بينما وصف الرحالة دي لامارتين في موقع (قرية عناتا/أناتا) أخر يقع شرق القدس ويتبع قبيلة أبو غوش بأنه موقع قرية إرميا العبري، وظهرت هذه التصورات الدينية المسبقة حينما بدأت تظهر ملاح مدينة القدس من بعيد، حينها بدأت تنتعش ذاكرتها الثقافة العبرانية، التي هي جزء من الثقافة البروتستنتية المسيحية في إنجلترا، وفي ذات السياق صفت المباني القديمة خارج أسوار القدس بأنها مباني كان قد شيدها العبرانيون.

صفحة المصادر

1. ألفونس دي لامارتين، مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق 1832م، ترجمة جمال شحيد وماري طوق، الكويت، 2006م.
2. فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، الطريق من باريس إلى القدس 1803م، ترجمة مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة والنشر- بغداد – شارع أبو نواس، ط 1، 2008م.
3. غوسطاف فلوبير، رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج 1850م، ترجمة فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، ط، 2013م.
4. ماري إليزا روجرز، الحياة في بيوت فلسطين، رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855-1859م، ترجمة: جمال أبو غيدا، 2012م.